المجتمع العربي في زمن البعثة

دراسة في الاجتماع السكاني

مجيد كافي
تعريب: محمد حسن زراقط

خلاصة:

يهدف علم الاجتماع التاريخي إلى معرفة الأرضية والبنى الاجتماعية لمجتمع من المجتمعات في مرحلة معينة من تاريخه. ويؤدي البحث في هذا المجال إلى تلافي بعض الإشكاليات الموجودة في تقارير المؤرخين لتلك المرحلة وتقييم الوثائق المرتبطة بها. وفي هذه المقالة سوف نسعى إلى دراسة وتحليل دور البنى والمؤسسات الاجتماعية – بنظرة علم اجتماعية – في مرحلة البعثة النبوية وكذلك دراسة طبيعة العلاقة بين الفرد والدين في تلك الفترة، لتحديد دور كل من الأفراد والمؤسسات الاجتماعية في انتشار الدين الإسلامي.

مقدمة

لكل أمة ومجتمع تاريخهما الذي يشكل هويته، والوقائع التي يقال عليها وقائع تاريخية هي العناصر الأساسية التي تشكل هوية تلك الأمة أو ذلك المجتمع، فإن بين التاريخ والهوية علاقة رمزية وثيقة؛ ولكن اكتشاف العلاقة بين المجتمع والتاريخ يمكن أن ينظر إليه من زوايا متعددة.

وقد كتبت في هذا المجال كتب ودراسات عدة حاولت معالجة

تاريخ صدر الإسلام، ولكن مراجعة تلك الكتب يكشف عن غلبة طابع التوصيف عليها وليس التحليل، أو أنها كتبت لتعالج بعداً دون غيره من الأبعاد ومن دون منهجية تاريخية. وفي كثير من الدراسات حصل خلط بين الظواهر الاجتماعية التاريخية لتلك الفترة وبين سيرة النبي(ص).

في تحليل الظاهرة الاجتماعية – التاريخية، توجد مجموعة من العناصر الأساسية التي تستحق البحث والتحليل، أبرزها:

١– الأسباب التاريخية.

٢– الظروف الاجتماعية والثقافية المؤدية لانتشارها.

٣– موانع الانتشار.

٤– خصوصيات القيادة الخاصة بهذه الظاهرة.

٥– خصوصيات ودور الأوامر الواجبة الاتباع عند أتباع هذه الظاهرة.

٦– هدف هذه الظاهرة.

أضف إلى ذلك أن هذه الظاهرة يمكن أن تعالج من زوايا عدة، فتارة ينظر إليها من الناحية الاقتصادية، وثانية من البعد التاريخي، وثالثة تبحث من الزاوية السياسية، ورابعة تعالج بعين علم النفس.

وما نسعى إليه في هذه المقالة، هو إجراء معالجة – علم اجتماعية، للمؤسسات والبنى الاجتماعية لشبه الجزيرة العربية قبل وبعد الإسلام، ودراسة العلاقة بين الفرد والدين، والبنى الاجتماعية لكل من مكة والمدينة، والانسجام الاجتماعي، والوحدة الوطنية – الدينية، وأخيراً الأصول الحاكمة للدولة الدينية في المدينة. وبعبارة بسيطة، هدفنا الحصول على بعض الأفكار والنظريات التي تسمح لنا بالجواب عن سؤال: كيف يمكن للوعي التاريخي بحضارة كالإسلام – قائمة على مجموعة من قواعد السلوك والسنن المبنية على الوحي – أن يساعد على حل المشكلات المعاصرة، بحيث يؤدي ذلك إلى تجاوز الماضي والانطلاق في رحابة الثقافات والمجتمعات المتنوعة؟

لقد أُجيب عن هذا السؤال بإجابات عدة، وما أقدمه في هذه المقالة هو عرض لجواب توصلت إليه خلال بحثي لتلك المرحلة من تاريخ الإسلام، ولكني مع ذلك لا أعد بتقديم جواب شاف واف، كما لا أعد بتقديم جواب يرضي الجميع.

تأثير الأوضاع الجغرافية على البنى الاجتماعية للحجاز

تحتل شبه الجزيرة العربية مساحة واسعة من الأرض على الضفة الشرقية للبحر الأحمر، في الجنوب الغربي لقارة آسيا. وتعد هذه المنطقة من أكبر أشباه الجزر على الكرة الأرضية، وتتصل من الغرب بالبحر الأحمر إلى شمال فلسطين وبلاد الشام (سوريا والأردن حالياً)، ومن الشرق تمتد إلى العراق والخليج الفارسي، ومن الجنوب تلامس المحيط الهندي وبحر عمان.

وصحراء الحجاز بحر من الرمال المتحركة والحصى الحارقة الملتهبة. وتشتمل على سلسلة من الجبال العالية يفصل بينها أودية سحيقة الغور تسمى بـ «سراة» بموازاة البحر الأحمر، وتفصل هذه السلسلة الجبلية بين تهامة والصحراء المركزية. وبين جبال سراة طرق رملية تنتهي بعضها إلى الكعبة قبلة المسلمين.

وتعاني منطقة شبه الجزيرة العربية في بعض نواحيها من قلة المصادر الطبيعية نتيجة قلة المتساقطات، وقد أدت هذه الطبيعة الجافة إلى انعدام الحياة في عدد من صحاريها. وكان من الطبيعي أن لا يعرف أهل هذه البلاد الاستقرار إلا في بعض المدن المحدودة، ومن عدا سكان المدن فقد كان بدوياً يحمل بيته على ظهره.

وكان من الطبيعي أيضاً، أن تترك هذه البيئة أثرها على الاجتماع السكاني لشبه الجزيرة، فتغلب عليه البداوة، ولا تتشكل المدن الكبرى إلا بعدد ضئيل، وقد أدى هذا النمط من العيش إلى عدم تشكل دول وأنظمة سياسية تحكمها قوانين واضحة ومحددة تضمن حقوق المواطنين بعيداً عن توجهات زعيم القبيلة وغيره من النافذين[1]. وحيث إن دراسة الظواهر الاجتماعية – التاريخية لا يجدي نفعاً دون تحليل ظروفها المحيطة بها سوف نحاول دراسة الأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية التي رافقت ظهور الإسلام للوصول إلى تكوين صورة واضحة عن تلك المرحلة.

١- النسيج الاجتماعي

عرفت شبه الجزيرة العربية شكلين من النسيج الاجتماعي أو البنى الاجتماعية نشأ عن نوعين من الحياة الاجتماعية:

النوع الأول: هو الحياة البدوية، ويستخدم بعضهم للدلالة على هذا النمط تعبير

«الوبري»[٢]، وهي النمط الرائج للحياة في الجزيرة العربية. ومن أهم مميزات هذا النمط من الحياة: سكن هؤلاء غالباً في خيم وبيوت من الوبر والشعر، ويعتمد سكان البادية على الرعي لتحصيل أرزاقهم، ولا وجود لمفهوم وطن في القاموس الاجتماعي البدوي[٣]، والانتماء الأساس هو الانتماء إلى القبيلة.

النوع الثاني: الحضر، وهم سكان مكة ويثرب والطائف، ويستخدم مصطلح «المدري»[٤] للدلالة على هذا النمط الاجتماعي، ويسكن هؤلاء في بيوت من الطين. ومن لوازم الاستقرار في محلٍ، رواج الزراعة وغيرها من الأعمال التي تتوقف على الاستقرار[٥]، ومن الطبيعي أن تدخل قاموس هؤلاء فكرة الوطن والأرض المملوكة.

ولا نقصد بالمجتمع المدني هنا ما يقصد في علم الاجتماع المعاصر، بل أقصى ما نريده هو الحديث عن جماعات سكانية مستقرة في مكان محدد؛ وعليه فإن خصائص هذا المجتمع لا تختلف عن خصائص الاجتماع البدوي في كثير من مظاهره الثقافية والفكرية[٦]. ويثبت هذه الدعوى الأخيرة ما حصل من نزاع بين أهل مكة حول وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة؛ حيث يروي المؤرخون أن بني عبد الدار وعدي أحضروا إناء مليئاً بالدم وغمسوا أيديهم فيه وأقسموا على القتال حتى الموت، وأقسم معهم بنو سهم وبنو مخزوم فسموا بـ«لعقة الدم». وكاد القتال ينشب بين هؤلاء الحلفاء وأخصامهم لولا تدخل أبي أمية بن المغيرة واقتراحه تحكيم أول قادم من «باب السلام» فكان أول الوافدين على المتخاصمين محمد(ص) فقالوا: أتى الأمين؛ ورضوا بحكمه فأمر بعباءة وضع عليها الحجر وحملت كل طائفة بطرف من أطراف العباءة ورفعوا الحجر فتناوله النبي(ص) ووضعه في محل بناء الكعبة[٧].

ومن أبرز ما تكشف عنه هذه الحادثة أن الثقافة الحاكمة على أهل مكة هي الثقافة القبلية. هذا ولكن لا ننكر أن أهل مكة كانوا وبحكم علاقاتهم الاقتصادية والتجارية على معرفة واسعة بالقبائل العربية جميعها، بل وعلى معرفة بشيء من ثقافة الروم أيضاً، ولكن ما ندعيه هو أن هذه المعلومات وهذا الاطلاع لم يترك أثره الفاعل في الثقافة والفكر ولا في السلوك[٨].

ومن أهم مدن شبه الجزيرة في تلك المرحلة التاريخية مكة ويثرب والطائف، وكانت صلات قربى ونسب مضافةً إلى صلات الثقافة والأفكار تربط بين «أهل المدر» و«أهل الوبر». وهذه العلاقات والصلات تبدأ باللغة واللسان وتنتهي إلى كثير من تفاصيل

العادات والأخلاق الاجتماعية والفردية، والفارق الأساس بين المجتمعين البدوي الحضري – المديني هو ما ينتج عن الاستقرار وما ينتج عن التنقل من محل إلى آخر[٩].

وما يستحق الذكر في هذا المجال أن المجتمع المديني أكثر انفتاحاً وتقبلاً للجديد من المجتمع البدوي، وهذا ما يفسر حدة الأعراب ومقاومتهم لدعوة النبي(ص) بالقياس إلى ما لاقاه من قبول في المجتمعات الحضرية في يثرب على الأقل، وهذا ما تؤكده الآية الشريفة حيث تقول: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا . . .﴾[١٠].

أ- الفقر وآثاره الاجتماعية - النفسية

كان يعاني سكان شبه الجزيرة العربية شظف العيش وقساوة الحياة ولم يشترك في هذا الأمر سكان البادية وسكان المدن، ومن آثار ضيق ذات اليد الذي كانوا يعانون منه أن تحولت الإغارة على أموال الناس مصدر رزق مهم لهم، وإذا لم تتيسر الإغارة على القبائل التي لا يعرفونها يقع الاختيار على القبائل الصديقة. وإلى جوار هذا، كانت تزدحم الحياة الاجتماعية في تلك المرحلة بمآسي عدة كالظلم وسبي النساء وأسر الأطفال ووأد الفتيات وغير ذلك مما كانت تضج به نواحي الحياة في تلك الفترة الزمنية[١١]. وقد أدت كل تلك المصاعب والمشقات إلى التأسيس لسجية نفسية هي القدرة على التحمل ومكابدة العناء، الأمر الذي انعكس صموداً للمسلمين الأوائل وتحملاً لآلام الحصار في شعب أبي طالب. وإلا لو كان المسلمون قد أدمنوا حياة الرفاه والرخاء لانكسرت إراداتهم أمام ما حملوه من مقاطعة اضطروا معها إلى أكل حشائش الأرض إن توفرت.

ب- النظام القبلي:

للحياة في الصحراء والبوادي لوازم أساسية تقتضيها ندرة الموارد، والحاجة إلى الانتقال من مكان إلى مكان آخر، والصراع على أماكن السكن والمراعي وما شابهها وكل ذلك يقتضي التكتل في جماعات صغيرة تجمعها رابطة الدم والاشتراك في الآباء والأجداد، الأمر الذي عرف باسم القبيلة. والقبيلة هي تكتل من الأفراد يرى كل واحد منهم أنه يشترك مع الآخر في النسب وفي المصالح الحياتية التي كانت تدعوهم إلى الاتحاد لمواجهة صعوبات الحياة ومشكلاتها[١٢].

وهي أول الأنظمة الاجتماعية في المراحل الأولى من تاريخ البشرية. وهي من لوازم الحياة في الصحراء، والحاجة إلى الانتقال من مكان إلى آخر بحسب فصول السنة نتيجة

ندرة الماء والكلأ. وقد نتج عن هذا التنقل الدائم وقلة الموارد العجز عن تأسيس تجمعات سياسية – اجتماعية كبيرة.

وتبتني القبيلة على ثلاثة أركان: اجتماعي، نفسي، ثقافي:

١– الركن الاجتماعي، هو النسب؛ أي الاشتراك في الأجداد.

٢– الركن النفسي، هو التعصب لحفظ ما هو قائم من عادات وتقاليد بين الآباء.

٣– الركن الثقافي، هو الافتخار بإنجازات القبيلة: الانتصارات، عدد أفراد القبيلة وكثرتهم، عدد الحروب التي خاضتها وغير ذلك من الأمور المشابهة. والذين يدافعون عن حسب القبيلة وأمجادها هم الشعراء والخطباء[١٣].

والقبيلة هي أبسط أشكال التضامن الاجتماعي، وعلى حد تعبير دوركهايم: هي تضامن ميكانيكي تنشأ من رغبة الفرد بالتواصل والعشرة مع أرحامه. ومن هذا الميل الغريزي ينشأ النظام الاجتماعي القبلي بل هو نواتها المركزية. وما تحققه القبيلة للفرد ليس أمراً بسيطاً؛ حيث إنه الحياة نفسها، ففي مثل تلك الحالات التي تقتضي طبيعة الحياة فيها النظام القبلي لا يتسنى للإنسان العيش خارج القبيلة؛ وعليه فهو مضطر للارتباط بمن له بهم صلة ونسب، وهو بالتالي مضطر من أجل حفظ حياته وماله أن يحافظ على نظام القبيلة وقيمها؛ حيث يعيش الصغار تحت رحمة الكبار لما يمثلون من تقاليد القبيلة وقيمها.

والنظام الاجتماعي الذي ساد في شبه الجزيرة العربية هو النظام القبلي، حيث كان يرتبط الأفراد برابطة القربى وحيث كانت تلعب ندرة الموارد الطبيعية دوراً في تحسس العربي من الارتباط بأيٍّ كان؛ لأنه كان يرى فيه مزاحماً على الماء والكلأ، ولأنه لا يأمن أياً كان في ترحاله وانتقاله من مكان إلى آخر. ولكن على أي حال لم يقتصر النظام القبلي على البدو والرحل، بل تعداهم حتى إلى أولئك الذين كانوا يسكنون في المدن كمكة والمدينة؛ وذلك لأن قريشاً والأوس والخزرج كانوا يرون أن الرابطة بينهم هي رابطة الجد الواحد، وأن لهم مجموعة من القيم والعادات والتقاليد تجمعهم ويتعصبون لها وعلى أساسها[١٤]. وتمثل في ما بينهم دور القوانين الاجتماعية الواجبة الإجراء[١٥].

ولكل فرد في النظام القبلي موقعه ومنزلته الاجتماعية، فيقع في رأس الهرم زعيم القبيلة ومن يحيط به من مستشاريه، وهؤلاء لهم امتيازاتهم الخاصة وهم فوق القانون بل

ربما كانوا هم مصدر القانون نفسه، وفي المرتبة الثانية من النظام القبلي يأتي التجار وأصحاب الأرض، ويليهم سائر الطبقات الاجتماعية[١٦].

وقد ترك التضامن القبلي الاجتماعي أثراً مهماً في انتشار الدعوة الإسلامية، حيث إنه عندما آمن بعض الناس لم يكن بوسع معارضي النبي(ص) ومخالفي دعوته محاسبتهم أو تجريمهم؛ لأن القانون القبلي يقضي بعدم تدخل قبيلة في شؤون أخرى، أو لأن القانون القبلي كان يعطي لابن القبيلة حصانة تحميه من تعرض القبائل الأخرى له؛ والأمر الآخر الذي فتح الباب في وجه الدعوة الإسلامية، هو أن بعض زعماء القبائل لم يروا في دعوة النبي(ص) ما يضر بمصالحهم، ولذلك كانوا يغضون الطرف عن إيمان بعض الأفراد بالدين الجديد.

ج- زعيم القبيلة:

لكل قبيلة زعيم يتولى إدارة شؤونها وعلاقاتها في زماني الحرب والسلم، وقد توكل مهمة القيادة بالإضافة إلى شيخ القبيلة إلى مجموعة من الوجهاء والأشراف في هذه القبيلة؛ بحيث يشكلون معاً مجلساً لإدارة شؤون القبيلة وتنظيم تحالفها، فلا يتخذ شيخ القبيلة أي قرار دون مشاورة أعيان القبيلة ووجهائها، وما يجدر ذكره أن منصب زعامة القبيلة لم يكن عادة مطمحاً لأي فرد من أفرادها.

ولا توجد دلائل واضحة تكفي لشرح كيفية اختيار زعيم القبيلة وطريقة وصوله إلى هذا المنصب، ولكن يمكن دعوى أن الوراثة هي أحد طرق تقلد هذا المنصب[١٧]. وكذلك لا تخلو المواصفات والخصائص التي تتمتع بها شخصية الفرد من تأثير في الزعامة أو في توسعة دائرة الصلاحيات، ومن هذه المواصفات التي كانت تذكر لزعماء القبائل وتؤشر على عظمتهم في عيون أفراد القبيلة: الكرم، والعلم، والشجاعة، والكهولة[١٨].

ومن هنا، كانت أهمية القبيلة تستمد من صفات زعيمها وعلو كعبه في المجد، حيث إنه يمثل روح القبيلة وعنوان عزّها ومجدها. ولا يملك الأفراد العاديون عادة إلا الطاعة والتسليم أمامه؛ ولذلك كانت قراراته حتى في شؤون الدين والمعتقد نافذة على الجميع، فإذا تدين بدين لمصلحة أو لقناعة تبعته القبيلة وتدينت بدينه.

وقد كان لهذا الأمر دوره في انتشار الإسلام وبخاصة في السنة التاسعة للهجرة؛ حيث عرف هذا العام بـ «**عام الوفود**»، نسبة إلى الوفود التي كانت تؤم المدينة معلنة

إسلامها فيتبعها في الإسلام من تركوه في منزله. وفي المقابل - قبل هذا العام - كان يلعب رئيس القبيلة دوراً سلبياً في منع الناس من الإسلام، حيث لم يُسلِم أحد من رؤساء القبائل غير سعد بن معاذ زعيم قبيلة بني عبد الأشهل، وطفيل بن عمرو الدوسي زعيم دوس(١٩). وعلى أي حال كان للعقلية القبلية دور مؤثر في الالتحاق بالإسلام والصدود عنه.

وتكشف هذه التبعية عن تأثير التقليد والأفكار الموروثة في المجتمع العربي، الذي يمكن عده نموذجاً من أوضح نماذج المجتمع البطركي (الأبوي) الذي يعطي للآباء والأجداد سلطة تمارس دون عنف، ولا تحتاج إلى إعمال قوة في كثير من الأحيان على الرغم من استثناءات كان للقوة فيها أثرها الفاعل(٢٠). وقد استمر هذا النمط من القيادة إلى فترة طويلة وظل يمثل عائقاً كبيراً في وجه انتشار الدعوة الإسلامية، إلى أن انبلج فجر الدعوة المحمدية وسطع نورها، فتحولت القيادة والإمرة إلى رسول الله(ص).

نعم كان النبي قائداً كاريزمياً، يرى فيه أتباعه صفات وخصائص غير اعتيادية أو قوى استثنائية، وهذه الخصائص هي أهم ميزة في القادة الثوريين الذين يمثل ظهورهم خطراً على الأوضاع القائمة، بل وتمثل شخصيته وقوداً دافعاً للثورة، وتؤسس لإحداث انقلاب وتحول في شخصية الأتباع على المستوى الذهني والعاطفي، ومثل هذا القائد يحصل على صلاحيات واسعة في اختيار الأنصار وقادة الميدان(٢١).

٢- بنى السلطة:

انعكست طبيعة النظام القبلي الذي كان سائداً في شبه الجزيرة العربية على شكل النظام السياسي فكانت السلطة أشبه بما عرف في التاريخ الإسلامي بملوك الطوائف. ومن الطبيعي في وضع كهذا أن تنحصر سلطة كل قبيلة بأفرادها ولا تتعداها إلى غيرهم، ولم يكن كذلك بين القبائل سلطة تجمعها تحت ما يمكن أن يسمى فدرالية القبائل، وبالتالي لم يتسن في مثل هذه الظروف الاجتماعية والسياسية تأسيس حكومة مركزية تضم شتات القبائل المتفرقة.

وقد كان لهذا الأمر أيضاً أثره في تسهيل انتشار الإسلام؛ حيث إن السلطة المركزية القوية غالباً ما تكون عائقاً في وجه أي تحول اجتماعي جديد(٢٢). وفي السياق نفسه يمكن الإشارة إلى الوضع الجغرافي والاجتماعي لشبه الجزيرة العربية بالمقارنة بجارتيها

الكبيرتين الإمبراطورية الفارسية والرومانية؛ حيث أدى الفقر وقلة الموارد الطبيعية إلى إهمال هاتين القوتين العظيمتين في تلك الفترة لتلك المنطقة وعدم اهتمامهما بما يجري فيها من تحولات فكرية أو دينية.

أ- الحرب:

إن الحرب واحدة من الظواهر الاجتماعية الدائمة الوقوع في كل المراحل التاريخية، ولا يختلف شبه الجزيرة العربية عن غيره من مناطق الأرض ولا سكانه عن غيرهم من بني البشر، فقد كانت الحرب تشتعل بينهم لأسباب عدة جمعها في الغالب عاملان: العامل الاقتصادي، والعامل الثقافي.

ولتوضيح كيفية تأثير العامل الاقتصادي في نشوب الحروب نقول: إن الحياة في محل يعاني من ندرة الموارد الطبيعية ولم يؤسس فيه لنظام تقسم فيه هذه الموارد القليلة بشكل عادل أو واضح – ولو لم يكن عادلاً – سوف تكون القاعدة للتقسيم فيه هي القوة والغلبة.

وقد كان السعي إلى اكتساب المجد والشرف من الأسباب التي كانت تولد الحروب. ومن الأمثلة التي ذكرها لنا المؤرخون حرب الفجار الثانية؛ حيث يروى أن رجلاً من بني غفار دخل إلى سوق عكاظ وارتجز ما حاصله: إنني أعز العرب ومن لم يقبل فليضرب رجلي بسيفه. فأخذت الحمية رجلاً آخر فضربه بسيفه فجرحه فاشتعلت حرب الفجار. وكذلك الحرب التي دارت رحاها بين بني تغلب وبني بكر، سببها كما يذكر المؤرخون هو أن كليب بن ربيعة التغلبي سأل امرأته: هل تعرفين من هو أفضل مني بين الرجال؟ وأصر في طلب جوابها فقالت: أعرف من هو أكرم منك حسباً وأعلى في المجد كعباً! وأشارت إلى أخويها جساس وهمام الكلبيين. فحقد الزوج عليها وشرع في أذى جساس ومن حوله حتى قُتِل على يديه، فدارت الحرب بين القبيلتين مدة أربعين عاماً.

ومن أسباب الحرب ما يمكن تصنيفه ضمن دائرة الأسباب الإنسانية – النفسية (حروب الأعراض والشرف) ومن ذلك حرب الفجار الثالثة التي اشتعلت دفاعاً عن شرف فتاة تعرضت لشق ثيابها عنوة من قبل مجموعة من الشبان، فاستنجدت فدارت الحرب بين قومها وقوم المعتدين عليها.

وإذا أردنا تحليل أسباب الحرب من الناحية القانونية يمكن القول: إن انعدام القوانين المدنية والجزائية هو السبب الأهم لاشتعال الحروب.

ذلك أنه إذا تعرض فرد من قبيلة لأذى من قبيلة أخرى مهما كان نوع الأذى ومهما كانت أسبابه، ظالماً كان الرجل أم مظلوماً كانت القبيلة التي تعتز بأفرادها ويعتزون بها تجد نفسها مضطرة للمبارزة وللدفاع عن أعضائها وفق قاعدة: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً».

وآخر ما يمكن الإشارة إليه في هذا السياق، هو تناسل الحروب حيث إن بعض الحروب تولد من بعض، وذلك أن القبيلة التي تحوق بها الهزيمة في حرب تتربص بالقبيلة المنتصرة الدوائر لتعاود الكرة، وتجرب حظها في الحرب ثانية علها تثأر لكرامتها الجريحة وتمحو عار الهزيمة الأولى. وعلى أي حال، لا شك في أن تلك الحروب جميعاً مهما كانت أسبابها ونتائجها تركت آثاراً نفسية واجتماعية ساعد بعضها على انتشار الإسلام فيما كان لبعضها الآخر دور الإعاقة والمنع. وفي ما يأتي سوف نحاول استعراض بعض الخصائص النفسية الملازمة للنظام القبلي والتي كان لبعضها دور مساعد على انتشار الإسلام.

ب- الشجاعة:

إن الحروب الطويلة والنزاعات المستمرة ولّدت في العربي حالة روحية خاصة جعلته لا يهاب الحروب ولا يخشاها. ويبدو أنه أمر طبيعي، أن من يولد في الحرب ويعيش في أجوائها منذ نعومة أظافره إلى كبره سوف يصبح خوض الحرب بالنسبة إليه أمراً عادياً لا يُهاب. ولم تكن هذه الصفة للرجال فحسب بل تعدتهم إلى النساء والأطفال. وربما كان العيش في الصحراء ومكابدة مصاعب الحياة فيها هو الذي يولد هذه الصفة في نفس الإنسان العربي البدوي، فهو كان بين خيارين لا ثالث لهما، إما الإقدام والشجاعة للبقاء على قيد الحياة وإما الجبن والاستسلام للموت[٢٣].

وقد استفاد الإسلام من هذه الخصوصية في النفس العربية بعد استقراره في يثرب وتأسيس الحكومة الإسلامية الأولى في التاريخ؛ حيث كان من البعيد أن يكتب لهذه التجربة الاستمرار والنجاح لولا هذه الخصوصية في المسلمين الأوائل الذين خاضوا في عشر سنوات ما يزيد على الثمانين عملاً عسكرياً بين جهاد ابتدائي ودفاعي، في حروب مشوبة بالكثير من المعاني التي أوجدها الإسلام وبيّنها في أتباعه، ويظهر ذلك من المقارنة بين قريش وعسكرها وبين المسلمين وعسكرهم من ناحية العدد والعتاد. فالشجاعة العربية كانت متوفرة عند مشركي قريش كما عند مسلمي المدينة، وكان المشركون أكثر عدداً وأحسن تجهيزاً وعتاداً، ومع ذلك كانت الغلبة للمسلمين في أكثر الجولات التي دارت

بين الطرفين، وما الفارق إلا الروح التي بثها الإسلام في أتباعه.

ج - العصبية:

من الخصوصيات الملازمة للنظام القبلي التعصب والعصبية التي ما تلبث أن تتسرب إلى النفس الإنسانية وتصبح جزءاً من مقوماتها؛ لأن الإنسان في القبيلة لا يمثل شيئاً كفرد وإنما يكتسب كرامته من القبيلة نفسها. ومن هنا، يبدأ الفرد بنسيان قيمته الذاتية بوصفه كياناً مستقلاً، بل يعي نفسه وذاته بوصفه جزءاً من الجماعة التي ينتمي إليها، وهذا الإحساس على الرغم من المساوئ الملازمة له، إلا أن له منافعه وفوائده. والتعصب علاقة لها طرفان حيث يتولى الفرد الذوبان في القبيلة وتتولى القبيلة الدفاع عنه وحماية مصالحه. وقد كان لهذه العلاقة أثرها على الأمن النفسي للفرد.

وللتعصب بعدان فكري وقبلي:

والتعصب الفكري للوهلة الأولى من خصائص الفرد الذي لا طاقة له بالتفكير، وذلك أن مثل هذا الإنسان يخلي عاتقه من هذه المهمة الصعبة ويقبل ما يملى عليه من فرد أو من جهة أخرى يطمئن إليها. ولا يكشف التعصب بالضرورة عن قوة الإيمان وصلابة الاعتقاد بما يتعصب له من أفكار، بل هو دليل على انحراف نفسي وسطحية في التفكير. وهذه الخصوصية الفردية تتحول بمرور الزمان إلى خصوصية جمعية تترك أثرها على الاجتماع الإنساني المتميز بهذه الصفة. وعلى أي حال يندر وجود إنسان خال من التعصب.

ومن هنا، لم يحاول الإسلام انتزاع التعصب من الروح الإنسانية بقدر ما حاول توجيهه وتشذيبه؛ ولذلك يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «**فتعصبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض**»[٢٤].

ويمكن القول: إن التعصب حالة نفسية تمهّد لسلوك محدد، وينتج عن التقليد والتأثر بالآخرين آباء كانوا أم غيرهم، وهو غالباً ما يكون تعصباً للجو الاجتماعي السائد[٢٥]. وهكذا كان للتعصب والعصبية دورهما في انتشار الإسلام والدفاع عنه، ومن أمثلة ذلك ما تحمله بنو هاشم من حصار في شعب أبي طالب، وكانوا في ذلك سواء، من آمن منهم بدعوة النبي(ص) ومن لم يؤمن[٢٦].

وكل ما فعله الإسلام تجاه هذه الصفة الروحية الاجتماعية أنه وجّهها لخدمة أهدافه ونيل مقاصده، ولكنه لم يقض عليها. وفي الختام كان لهذه الصفة في المجتمع العربي في عصر البعثة دور المساعد على انتشار الإسلام كما دور المانع من انتشاره والمعيق لحركته.

٣- السكن المديني في جزيرة العرب:

إذا أخذنا معايير علم الاجتماع المدني المعاصر، فإن المجتمعات المدنية القديمة ليست سوى مجتمعات صغيرة. وإن أكثر المدن القديمة على اختلاف خصائصها ومواصفاتها تشترك في مجموعة من الخصائص هي: وجود مركز للمدينة يمثل قلبها ونواتها، فيتوفر فيه غالباً مساحة عامة وفضاء مشترك، وغالباً ما كانت المدن تحاط بسور من جوانبها الأربعة. ومركز المدينة القديمة رغم غلبة الطابع التجاري عليه، إلا أنه يختلف عما هو معروف في المدينة المعاصرة؛ حيث كان له مضافاً إلى طابعه التجاري طابع سياسي وديني أحياناً، لجهة كونه محل سكن الطبقة الحاكمة والنخب الاجتماعية والاقتصادية.

وكانت يثرب وعلى خلاف مكة محلاً لسكن جماعات قومية ودينية مختلفة تقيم منفصلة بعضها عن بعضها الآخر. ويربط بينها نظام من العلاقات غير واضح المعالم. وكانت تفتقد كل من مكة والمدينة لشبكة مواصلات بالمعنى المعروف في عصرنا هذا.

وقد كان سكان المدن في شبه الجزيرة العربية يعتاشون من الزراعة والتجارة وبعض الصناعات اليدوية. وهذا ما دعا إلى استقرارهم فإن هذا النوع من الأعمال يلزم صاحبه بالاستقرار في محل محدد لفترة قد تطول. ومن خلال الترابط بين الأوضاع الاقتصادية والجغرافية وبين الأوضاع الاجتماعية والسياسية نجد أن قلة المطر أرخت بظلالها على سكان شبه الجزيرة العربية ومنعتهم من تأسيس مجتمعات سياسية كبيرة ومستقرة، بل أخذت الدولة شكلها ونظامها من البيئة ومقتضياتها. وكانت المواسم والأسواق الموسمية ذات أثر اجتماعي كبير في الحضارة العربية في تلك الفترة.

ومن أبرز خصائص العيش في المدينة تلاقح الثقافات الذي ينتج من خلال التواصل التجاري مع الخارج؛ ومن هنا نلاحظ أن أهل المدن في شبه الجزيرة العربية يتمتعون بخصائص لم تكن موجودة في سكان البادية.

أ- خصائص المدينة:

تبرز من خلال المقارنة بين المدينة العربية والبادية مجموعة من الخصائص نشير إليها فيما يأتي:

١- تتمتع المدينة بكثافة سكانية تفتقدها البادية.

٢- يترتب على الاستقرار في محل واحد لمدة طويلة نوع من الطبقية الاجتماعية والاقتصادية، قد لا تتوفر في مجتمعات البادية.

٣- يمكن عد التجارة من آثار السكن المديني ومن دواعيه، ويترتب على ذلك أو يدعو إليه تأسيس شبكة طرق تربط المدينة بغيرها من النواحي المحيطة بها.

وربما يمكن تحليل أوضاع وأحوال مدن شبه الجزيرة العربية على ضوء النظرية التي تقضي بدراسة أوضاع المدينة من بعدها الاقتصادي. في هذه النظرية تعد المدينة مركزاً لتبادل البضائع ومقراً للعمليات التجارية الأساسية. وبالتالي مركزاً للتبادل الداخلي بين المدينة وأطرافها كما بين الإقليم والخارج. مع كل ما يترتب على تلك المركزية مضافاً إلى التجارة من صناعات وعلاقات اجتماعية وإنسانية، بل وعلم وأدب(٢٧). ومن بين المدن التي لعبت هذا الدور في تاريخ العرب وتاريخ الإسلام مدينتان هما: مكة ويثرب.

ب- مدينة مكة:

تقع مكة في القسم الغربي من شبه الجزيرة العربية، وتعد جزءاً من تهامة. وتتميز بموقعها الجغرافي من خلال إحاطتها بسلسلتين جبليتين. ويعود تأسيس هذه المدينة وابتداء السكن فيها إلى عهود قديمة، ولا يمكن الجزم بتاريخ دقيق لذلك، ولكن بعض المصادر التاريخية تكشف عن كونها مسكونة قبل عصر النبي إبراهيم (عليه السلام)، وذلك أنه (عليه السلام) طلب الأمن لأهلها ببناء البيت الحرام فيها(٢٨). ومنذ ذلك التاريخ وربما قبله صارت مكة أو كانت محلاً لتوقف القوافل التجارية(٢٩). وحول علل وأسباب ظهور مكة تمكن الإشارة إلى ما يأتي:

١- الأسباب الدينية:

لا يخفى دور الدين على الحياة الإنسانية وعلى تشكل المجتمعات وربط الأفراد بعضهم ببعض، ومن خلال ربط الأفراد تتأسس المدن ويلعب رجل الدين دوراً بارزاً في المدينة من خلال بعض الممارسات الدينية التي تحتاج إلى محل تقام فيه، فيتحول ذلك المحل إلى مركز المدينة وقلبها.

ومدينة مكة من أهم الأمثلة والنماذج لتطبيق هذه الرؤية؛ فمكة وبسبب وجود الكعبة فيها كانت تتمتع بقداسة خاصة عند جميع الملل والنحل.

فالصابئة والآشوريون يعدون الكعبة واحدة من البيوت السبعة على الأرض. والهندوس يعتقدون أن الإله «شيفا» أو (الأقنوم الثالث) عندما زار الحجاز مع زوجته حل في الحجر الأسود. والإيرانيون القدامى كانوا يعتقدون أن روح هرمز حلت في الكعبة وكانوا يزورونها أحياناً. واليهود ينظرون إلى الكعبة باحترام، وأخيراً يكشف وجود صورة المسيح وأمة في بعض العصور في الكعبة عن احترام المسيحيين وتقديسهم لها(٣٠).

وقد تركت هذه النظرة إلى الكعبة أثرها على احترام المدينة كلها فتحولت مكة إلى حرم آمن، وقد ساعد هذا الأمر في تحولها إلى مركز تجاري إلى جانب قصد الحجيج لها في مواسم محددة.

٢- الأسباب الاقتصادية:

من الناحية الاقتصادية وتبعاً لما تقدم حول دور الاقتصاد في نشأة المدن وتشكيل نظامها الاجتماعي – وتجدر الإشارة إلى أن طبيعة المناخ حالت دون نشوء زراعات أساسية في مكة –فإن موقع مكة الجغرافي والديني جعلاها مركزاً تجارياً مهماً. أما من الناحية الدينية، فقد مرت الإشارة إلى أن قداسة المدينة جعلتها مقصداً دينياً مع ما يرافق ذلك من إحضار البضائع إليها وتبادلها فيها؛ وأما من الناحية الجغرافية فقد كان لمكة طريقان تجاريان أحدهما من الشرق حيث كان يربط عمان بالعراق ويستخدم لنقل البضائع من اليمن والهند وإيران، والآخر من الغرب يربط العراق والصحراء وينتهي إلى أسواق الشام. وكانت القوافل التجارية تلتقي فيها وتبيع ما ليس موجوداً وتحمل إلى مقاصدها ما يتوفر فيها من بضائع.

مضافاً إلى أن أهل مكة كانوا يحترفون التجارة وكانت لهم رحلاتهم التجارية إلى كثير من أنحاء العالم التي كانت معروفة وقتها. وعليه لم تكن مكة في ذلك العصر مدينة معزولة هادئة، بل كانت مركزاً حيوياً يضج بالتجارة، بل كانت ملتقى ومقراً للتبادل التجاري بين بلاد المحيط الهندي وبلدان البحر الأبيض المتوسط.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن العوامل المذكورة لا تؤثر في تأسيس المدن واتساعها إذا فصل بعضها عن بعضها الآخر وإنما تؤثر عندما تتضافر، وهذا ما حصل في مكة فقد تضافرت هذه العناصر جميعاً لتساعد على تطور مكة وتحولها إلى مدينة مهمة لم تكن

تفتقد إلا الدولة المركزية، ولكن استطاع أهل مكة أن يضمنوا حقوق الوافدين إليها من خلال مجموعة من الأحلاف والمواثيق وبعض القيم التي تم تبنيها كأساس للتعامل مع الوافدين، ومن هذه القيم قيمة حفظ الجوار. وقد كان لأعيان المدينة محل يجتمعون فيه في المناسبات الهامة يعرف بدار الندوة.

ج- دور مكة في انتشار الإسلام:

لقد كان لتلك الخصوصيات المذكورة لمدينة مكة (الأمن، الموقع الديني، الموقع الاقتصادي والجغرافي) دورها البارز في المساعدة على انتشار الإسلام وذيوع أخباره بين أهل الأرض عبر الوافدين إلى مكة للتجارة أو الحج. وكان أتباع الحنيفية قلة بين أهل مكة الذين غلبت عليهم الوثنية، ولكن إعلان النبي(ص) دعوته أدت إلى يقظة في الضمائر العربية التي كانت ما زالت مشبعة بما بقي من تعاليم إبراهيم(ع)، وقد ساعد ذلك على قبول عدد من هؤلاء بالإسلام واعتناقه عقيدة دينية.

الهوامش:

(١) جواد علي البغدادي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٧٨م) ج٤، ص٢٨٠.

(٢) الوبر هو الشعر الذي يغطي أجساد بعض الحيوانات، ويوصف بعض العرب بالوبريين بالنظر إلى استخدامهم الوبر في بناء خيامهم ومضاربهم.

(٣) البدوي هو الشخص الذي يتنقل من مكان إلى مكان في الصحراء.

(٤) يقال الحجر والمدر والمدر هو الطين المطبوخ، ووجه النسبة هو بناؤهم لبيوتهم به.

(٥) حسين الحاج حسن، حضارة العرب في عصر الجاهلية، ص ٢٧؛ جوادعلي، مصدر سابق، ص ٢٧١ فصاعدا.

(٦) حسين الحاج حسن ، مصدر سابق، (بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٤١٧ق) ص ٣٠.

(٧) جعفر مرتضي العاملي، الصحيح من السيرة النبي الأعظم (قم، منشورات جامعة مدرسي الحوزة العلمية، ١٤٠٢ق) ج١، ص ١٣٣.

(٨) هاملتون جب، الإسلام: دراسات تاريخية، ترجمه إلى الفارسية منوچهر أميري، (طهران، انتشارات علمي و فرهنگي، ١٣٦٧) ص٤٣.

(٩) أحمد العلي، الحجاز في صدر الإسلام؛ عن الترجمة الفارسية: عبد المحمد آيتي، (قم، مشعر، ١٣٧٥) ص ١٥٥.

(١٠) سورة التوبة: الآية ٩٧.

(١١) عبده، شرح نهج البلاغه، خطبه ٢٦.

(١٢) حسين الحاج حسن، مصدر سابق، ص٦٧.

(١٣) جوادعلي، مصدر سابق، ج٤، ص ٣١٣.

(١٤) حسين الحاج حسن، مصدر سابق، ص ٦٧-٦٨.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) جواد علي، مصدر سابق، ج٤، ص ٥٤٦.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٣٥١.

(١٨) المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٣٨.

(١٩) لمزيد من الاطلاع راجع: محمد أبو زهرة، خاتم الأنبياء، نقلا عن الترجمة الفارسية لحسين صابري (مشهد، آستان قدس رضوي، ١٣٧٥) ج٢، ص ٤٤-٤٧ و ١٦٣-١٦٧.

(٢٠) لمزيد من الاطلاع حول أنواع السلطة أنظر: فرويد جولين، علم الاجتماع الفيبري؛ وكذلك: جورج ريترز، نظريات علم الاجتماع، ترجمه إلى الفارسية: أحمد رضا غروي راد، ص ١٢١-١٢٦.

(٢١) فرويد جولين، نظريات علم الاجتماع، ترجمه إلى الفارسية: عبد الحسين نيك جوهر، (طهران، منشورات نيكان، ١٣٦٢)، ص ١٢٤.

(٢٢) انظر: جوادعلي، مصدر سابق، ج٤، ص ٤٨.

(٢٣) حسين الحاج حسن، مصدر سابق، ص ١٠٦.

(٢٤) الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، الخطب، الخطبة ١٩٢.

(٢٥) اتو كلانبرگ، علم النفس الاجتماعي، ترجمه إلى الفارسية: علي محمد كاردان، (تهران، منشورات أنديشه، ١٣٤٦)، ج٢، ص ٥٣٧-٥٣٩.

(٢٦) جعفر مرتضي العاملي، مصدر سابق، ج٣، ص ١٩٥.

(٢٧) انظر: حسين شكوئي، نظرات جديدة في جغرافيا المدن، (تهران، سمت، ١٣٧٣)، ص ١٤٣.

(٢٨) رب اجعل هذا البلد آمنا.

(٢٩) انظر: حسين شكوئي، مصدر سابق، ص ١٥٤.

(٣٠) هاملتون جب، مصدر سابق، ص ٤٢-٤٣.